

التربية في الأسرة

بقلم الأستاذ أحمد فهمي العمروسي بك

وقفنا بك في العدد الماضي من «المعرفة» عند واجب الأم في مدة الحمل ؛ وفي هذا العدد يجدر بنا أن نتساءل : ألا يجب على الأم في هذا الطرف العجيب - الذي تفرس فيه بذور الغرائز ، وأصول الاستعدادات والميول في نفس الطفل - أن تعتزل الحياة الاجتماعية العامة ؛ بعض الشيء ، فلا تنقيد بتلك الزيارات الطويلة المملة للأقارب والأباعد ؟ ألا يجب عليها ألا تسرف في غشيان دور الخيالة والتمثيل ، وأن تقتصد في التأنق والتجمل ، إذا كان فيهما ما يضيق على الجنين الخناق في مسكنه ومضجعه ، فتعوق بذلك حركة الدورة الدموية فيه ، وتوقف نموه بعض الشيء ؟

وأول واجب عليها ، إذا رزقت طفلاً ، أن تغذية بلبنها ، إذا كانت صحيحة معافاة ، لأن لبنها هو الغذاء الطبيعي الوحيد ، الذي يناسب بنية طفلها وحاجاته ، وهو الذي يقيه الأمراض التي تهدده ؛ أما إذا وكلت أمر إرضاعه إلى مرضعة أجنبية ؛ فإف أقل ما يقال في هذا ، إن إدخال لبن أجنبي في الأسرة ، هو إدخال دم أجنبي فيها ، وبالتالي إدخال وراثته أجنبية فيها ؛ ذلك أن الناس لا يهتمون إلا بلبس المرضعة وغذائها ، دون أن يعنوا بقياس درجة ذكائها ، وتبين مهبلها وعاداتها وأخلاقها ، مما يؤثر تأثيراً كبيراً في نفس الطفل وعقليته . يقول هربرت سبنسر ، في أهمية الغذاء واختيار الأغذية ، ومعرفة القيمة الغذائية لكل طعام ، والوقوف على أسرعها هضمًا ؛ وأسهلها امتصاصًا بالبنية ، وأنسبها لتكوين الأجسام ، مع مراعاة البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، والأعمال اليومية التي تفرض عليه : « إن الأمم ذات السيادة والسيطرة ، هي التي تعرف كيف تتغذى » .

إن هذا القول ، وإن كان فيه شيء من المبالغة المقصودة ؛ إلا أن التاريخ والتجربة يؤيدانه إلى مدى بعيد ، وقد أجريت تجارب في بعض مدارس فرنسا حديثاً ، أسفرت عن أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين نوع الغذاء والأخلاق ، إذ شهدوا أن درجة تقدم التلاميذ ونجاحهم في الدرس ، وخصوعهم للنظام ، كانت تنمو وتطرد بالمراد الغذاء المنظم ، الذي كان يقدم لهم ؛ أما السير على غير هدى في اختيار الغذاء وتحديد كميته للأطفال والرجال ، فينشأ عنه انتشار أمراض المعدة ، واضطراب الجهاز الهضمي ؛ وقد شوهد أنها أكثر انتشاراً في الطبقات الغنية منها في الفقيرة .

والهواء النقي غذاء ضروري للطفل ، كاللبن وغيره من الأطعمة الأخرى سواء بسواء ؛ فقد يستغنى الإنسان ، عن الأكل والشرب ، ساعات وأياماً ، ولكنه لا يستطيع بحال أن يستغنى عن استنشاق الهواء بضع دقائق ؛ فيجب على الأبوين أن يعنيا برياضة طفلهما كل يوم في المنزهات ، حيث يوجد الهواء الطلق ، والشمس ، والخضرة ، وأن يباشرا ذلك بنفسهما كما يفعل الإنجليز ، خاصتهم وعامتهم .

والقاري يعرف بلاشك مقدار الضرر الذي يلحق بالطفل إذا وكل أمره إلى الخادومات ، فقد رأيتهن مراراً وتكراراً يتركن الطفل في عربته يبكي ويش تحت أشعة الشمس المحرقة ، يستغيث ولا يفت ؛ بينما تلهو الخادم ، بالمحادثة مع الرجال من الخدم وغيرهم ، ثم هي بعد ذلك تأتي وتوسعه شتاً وسباً ولكما أحياناً .

ولكي تتبين مبلغ عناية الإنجليز بكل ماله علاقة بتربية أطفالهم ، أذكر لك فقرة من كتاب « التربية في إنجلترا » تأليف الكاتب الفرنسي « مسيودي كوبرتين » ، عن الأميرة الإنجليزية : « يرزق الإنجليز عادة جمّاً غفيراً من الأولاد يبيئون متتابعين ، فيعني بوضعهم في حجرة منعزلة خاصة بهم تجرى عليهم فيها أحكام التربية في سنينهم الأولى وتسمى بالمرنى Nursery . والعوامل الأساسية التي يجب أن تتوافر في المرنى ثلاثة : الأم ، المرية ، الهواء . وقد وصف الشاعر الشهير « راسكين » المرنى الراق ذاكراً عهد طفولته فقال : إنه حجرة في الطبقة الأولى من المنزل فسيحة الأرجاء ، متجددة الهواء ، وفيرة الضوء ، تامة النظافة ، غاية في السذاجة ، ينام فيها الطفل ويأكل ويرنع ويلعب ، لا يمشى كسراً لآنية ثميحة ، أو إفلاق راحة أمه المرية ، أو التهويش على أبيه المنسكب على عمله ، بها حوض كبير يستحمون فيه كل صباح بالماء البارد ليزدادوا قوة ونشاطاً ؛ وبراعي في لباسهم السذاجة والسمة والنعومة ، إذ ليس الغرض منه الزينة والتباهي بجمال الثياب ، بل الغرض الوقاية من البرد والمطر والهواء مع تمتع الأعضاء بالحركة الحرة والجري واللعب على ما يشتهي الأطفال . وهم يأكلون معاً في مواعيد مقرر ، وطعامهم غير متأنق فيه ولا متكلف ، ويخرجون كل يوم للتريض صيفاً وشتاء ، مستنفدين الساعات في الجري والوثب والظفر وتسلق الأشجار والتدحرج على الأعشاب ، متحملين في ذلك تبعاً لأعمالهم ، وعليهم وحدهم يقع الضرر من عدم إعمال الروية والتبصر في عواقب الأمور قبل الشروع فيها » . ثم يقول : « وبينما الطفل الإنجليزي يشب في المرنى على مبادئ الديموقراطية الصحيحة يعيش فيه كفرد من أفراد المجتمع له ماله وعليه ماعليهم لاسلطان له على أحد من إخوته ولو كان أصغر منه سنّاً ، نجد الطفل الفرنسي يعيش في حضن أمه ملازماً لها ملازمة الظل للعود ، ويجلس على المائدة مع أمه وأبيه وإخوته متى استطاع الجلوس فيهموس عليهم ببيكائه ، ويوسمهم من تدلله وكبريائه ، والسكل خاضع لأوامره ومنفذ لرغائبه ، فعجيب ألا يشب هذا الطفل على حب الذات وقلة الاكتراث للتبعات . »

وإذا انتهى طور الطفولة الأولى في المرء ، انتقل الأولاد منه إلى مدرسة هي في نظر الانجليز أهم المدارس تفعلاً ، وأنجمها في نفوس النشء أثراً ، ألا وهي الأسرة . كثير من الأمم يعتقدون أن الخير كله في معالجة أبنائهم بالذهاب إلى المدرسة ، ظانين أنها خير مكان يفضى فيه الطفل شطراً وافرأ من عمره . أما الرأي العام في إنجلترا ، فلا يذهب مذهبه ، ولا يريد أن ينتهج مسلكاً يناقض النوااميس الطبيعية وبدبييات المنطق .

يقول الانجليز : كيف يعقل أن يكون بيت الانسان أقل البيئات ملاءمة لأولاده ، ومعاشرته والديه أقل فائدة من معاشرة الغرباء ؟ ألا إن الانجليز يعدون عيباً وعاراً ، ألا أن يكون الإنسان هو المدرس الأول لأبنائه ، وألا تكون بيوتهم مجهزة بكل أداة صالحة للاعداد الكامل للطفل من وجهتي التربية الخلقية والبدنية . والغرض الذي ترمى اليه الأسرة الانجليزية من تربية أبنائها في هذه السن ، والذي يجب أن يكون غرض كل أسرة من الأمم الأخرى ، هو أن يشب الأطفال أصحاء البنية ، أقوياء الأجسام ، وأن يتعودوا - بالمران والدربة - العادات الحسنة - والأخلاق القويمة ؛ وعلى ذلك تنحصر مهمة الأسرة في التربية البدنية والخلقية لاغير ، أما التربية العقلية فتأتي بعد ذلك ، لأن العقل لا يظهر إلا في سن متقدمة .

لذلك كان يقول المرء الانجليزي «توماس أرنولد» : «إن التعميل بالأطفال إلى طلب العلم وشحن قرائحهم بمسائل علمية لا يفهمونها ، قد يؤدي بغضارتهم ونضرتهم ، ويطنى فيهم سرعة البادرة ونور البديهة ، ولن يلاقى الأطفال في حياتهم الأولى وبالاشراً عليهم من سبق حقولهم لأبدانهم» . وكان - وهو ناظر لاحدى المدارس - يرتع ويلعب مع تلاميذه الصغار ويخرج معهم يترامون جميعاً بكرات الثلج ، ويسبحون في الماء ، يتساقبون في الجذف بالزوارق ، وكان يقول : «إننا نرى إلى خدمة الجسم وتقويته إلى أقصى حد مستطاع ، لا للتباهى به أو استخدامه في قضاء ما آرب شخصية ، بل لغرض أسمى وأرفع ، هو حماية الضعيف ونصرة العدل في العالم أجمع ، وفتح الدنيا ، ووراثه الأرض ومن عليها» . ثم يقول : «وحيث إننا نريد أن نغصب أنفسنا الخير الانسانية ، فأول ما نعرضه على أنفسنا هو أن نكون أعزاء الجوانب أقوياء السواعد» .

وفي هذا كان يقول «عروة بن الزبير» من ألف وثلثمائة سنة لولده : «يا بني العبوا في المروءة لا تكون إلا بعد اللعب» ؛ والمروءة هي القيام بما فوق الواجب ، كالنجدة للمستغيث ، وحماية الضعيف وإلى القاريء صوتاً من أمريكا في هذا الصدد . يقول «أميرسون» : يجب على الانسان ان يكون حيواناً قوياً ، إذا شاء أن يكون النجاح حليفه في هذه الحياة ، والامة التي تريد أن تتبوأ مقعد صدق بين الأمم الراقية يجب أن تتألف من أفراد كالحيوان بأساً وقوة والواقع أن سلامة النفوس تتوقف إلى حد بعيد على صحة الأجسام ؛ فمن النادر جداً أن

نجد ذكاء متوقفاً في جسم خامد. والمشاهدات اليومية تدل على أن التردد في الأعمال من شأن ضفاف الأجسام، أما الأقوياء الأصحاء فهم موطن الجرأة، والاقدام، والنبات.

وبشاهد في مجال الأخلاق كذلك أن الحلم، ومطية القلب، ورحابة الصدر، لا تكون إلا حيث تكون الصحة، أما ضعف الجسم واضمحلال البدن فلهما مدعاة لسرعة الغضب وضيق الصدر، ومبعنة للفلم والجور في كثير من الأحيان.

تف عند هذا القدر من التربية، البدنية لنقول كلمة ختامية في التربية الخلقية، وهي لاقتل عن الأولى خطراً واعتباراً.

التربية الخلقية

إن الولد الصغير يتأثر منذ الولادة بالبيئة التي يعيش فيها، وينظر إلى ما حوله من الأشياء نظرة المتحير المندهر الذي يحول فيها كل شيء ويريد أن يقف منها على كل شيء.

والذي يساعد على تأثره بالبيئة المحيطة، مروته العظيمة وقابليته السريعة لانطباع صور الأشياء في ذهنه وبقائها فيه زمناً طويلاً.

ومخ الطفل في سنيه الأولى يحفظ عدداً عظيماً جداً من الألفاظ والعبارات بسرعة مذهلة، ثم هو يقلد تقليداً محكماً (وأنوماتيكياً) كل ما يصدر عن والديه والمحيطين به؛ فإبتساماته الأولى وإشاراته الأولى محاكاة وتقليد ليس غير؛ وكذلك الحال عندما يمشي الولد مشية أبيه ويتكلم بألفاظه وعباراته، وكذلك البفت تلبس مثل أمها وتمشي مشيتها وتنطق بلغتها، وحتى إذا كان في فظها بعض العيوب فإنها تنقله عنها.

وبالاختصار نقول: إن مخ الطفل في هذه السن الصغيرة يشبه في سرعة التقاطه صور المرئيات الآلة الميكانيكية المسجلة؛ بل هو يتحدى أعظم تلك الآلات سرعة ودقة، فقيه تنطبع الأقوال والحركات والإشارات كلها كما هي بلا تغيير ولا تبديل، وبدون تمييز بين الخبيث والطيب، والصالح والطالح.

فواجب الوالدين والأهل إزاء هذه الآلة المسجلة البديعة أن يتخيروا أحسن ما عندهم من الألفاظ والعبارات التي يتكلمون بها أمام الأطفال، ويعنوا بالألفاظ التي يقع نظارهم إلا على النماذج الحسنة والمثل الصالحة.

وإن ذكر لقراء « المعرفة » على سبيل التمثيل حالتين هامتين :

الأولى: يجب على الأهل أن يجتنبوا ما استطاعوا المنازعات والمخاصمات الزوجية أمام الأطفال، فإنها تنفس في أذهان الأطفال ويبقى أثرها فيها مدى الحياة، بخلاف الزوجين فإنهما لا يلبثان أن ينسيا كل ما وقع من هذا القبيل بينهما لكثرة مشاغلها، ولأن الحياة الزوجية لا تخلو منها.

الثانية: قد يبيح الإنسان لنفسه في منزله أن يتكلم بألفاظ وعبارات لا يستطیع أن يتكلم

بها في المجتمع، فاذا خلا برز وجهه قد يتناول مثل اسير الناس بشئ من الدم والقدح، كما هو المشاهد في كثير من الاحيان، فاذا قيل ذلك أمام الأولاد الصغار، غرس في نفوسهم أقيح العيوب وأشنع العادات، كالغيبية والحسد والحقد وما إلى ذلك.

هذا هو الشق السلبي من التربية الخلقية في الأسرة؛ إلا أنه يكفى أن يمتنع الوالدان عن ارتكاب مثل تلك المفوات لتكوين بيئة الأسرة بيئة صالحة لتنشئة الأطفال تنشئة حسنة.

والشق الثاني إيجابي: ويجب على الوالدين إزاهه أن يبتنا في نفوس أبنائهما بعض الفضائل الخلقية الأساسية التي تقوم حائلاً منيعاً أمام رغائب النفس فتمنعها من السقوط في شهواتها. وتلك الفضائل هي بمثابة الضابط الذي ينظم أحوال النفس؛ كما أن المجموع العصبي في الجسم هو الضابط الذي ينظم حركات أعضائه المختلفة ويوزع عليها جهوده، كل عضو بنسبة العمل الذي يؤديه للمجموع.

وإن طبيعة الطفل تسها هي التي تملي علينا نوع الفضائل الخلقية التي يجب أن نغني ببها فيه، ونغشها في ذهنه تقشاً يبقى فيه مدى الحياة.

إننا إذا تأملنا تلك الطبيعة، ودققنا النظر في أطوارها وأحوالها، لا نلبث أن نتبين فيها خصتين بارزتين:

الأولى: عدم الاستقرار، وسرعة التنقل من فكرة إلى فكرة، ومن عاطفة إلى عاطفة، ومن عمل إلى آخر، دون مناسبة أو رابطة؛ فتراه ينفضب ويرضى. ويضحك ويبكي على التوالي، بسرعة مدهشة، وبلا داع، أو لداع تافه لا يذكر.

وهذا الزق، وهذا الطيش، كانا من أهم مميزات الإنسانية في طورها الأول، ولا زالا ظاهرين في الأمم المتأخرة التي لا تزال في أحط درجات الحضارة والعمران. فترى الرجل منهم يتهبج بسرعة البرق لأقل الأسباب وأوهاها، ثم لا يلبث أن يهدأ ويسكن لكلمة بسيطة توجه إليه. فيبنا هو عدو مبین؛ إذا به صديق حميم؛ وتلك حال يعرفها السائحون والكاشفون، وكثيراً ما يستغلونها لذلك، وإنجاح مشروعاتهم في تلك البلاد. وقد قطعت الإنسانية شوطاً بعيداً في هذه السبيل، وظلت أجيالاً وقروناً حتى انتقلت من الخفة والطيث إلى الرزانة والاستقرار، واللذين نشاهدنا الآن في أفراد الأمم الراقية.

هذه هي سبيل الأمم في التدرج في الرقي، وتريد التربية أن تتدرج بالطفل في هذه السبيل، ولكن على أن تقطع في بضع سنين الأدوار التي قطعتها الإنسانية في عدة قرون.

وعلاج الأطفال في هذه النقطة يسير لا يحتاج إلى عناء كبير؛ ذلك أنه يوجد في الطفل — بجانب نزقة وخفته — ميل كبير إلى التمرد السريع، فتراه إذا أتى عملاً جملة مرات بأنه ويعتاده

وبواناب عليه بدقة مدهشة ، لدرجة أنه يغضب إذا اضطر للمسدول عنه . فإذا أجلسه إلى المائدة في محل معين أياماً متتالية، فإنه يسرع إليه ويجلس فيه من تلقاء نفسه، وإذا اعتدى عليه أحد من إخوته وانزع منه ، فإنه يغضب وينادر حجرة الأكل، وكذلك يتمود الأكل بأدوات مائدة معينة، ويحب ألا يخدمه إلا الخادم الذي اعتاد أن يخدمه ، وهكذا.

الخصلة الثانية : ميله الفطري إلى تجاوز الحد في كل شيء وبلوغ الغاية في كل مأرب ؛ فإذا أحب شيئاً، فإنه يذهب فيه إلى أبعدهمى - إلى درجة النهم - وإذا منع عنه فإنه يغضب ويبكي ويتمرغ على الأرض ، كما يقول « دارون » ، ويضرب وجهه بيديه، ويدفع كل ما يعترضه من الأشياء في طريقه ، حتى ليخيل للإنسان أنه إذا تركه وشأنه على هذه الحال يموت غيظاً وكداً .
فالترية الحقة تختم وضع حد لهذه العواطف النائرة، التي إذا لم يكبح جياحها في الألفال منذ الصغر ، ألفت بهم في هاوية سحيقة لا منقذ لهم منها .

ولقد صور الشاعر الألماني العظيم (جوته) - منذ مائة عام تقريباً - مقدار تملك العواطف للإنسان إذا لم تحد... في شخصية (فاوست) الذي يحدثنا التاريخ عن أنه رجل عاش في القرن السادس عشر لليلاد ، وكان مثلاً بارزاً لاتتمطش الزائد إلى ملاذ الحياة جميعاً، والانهماك فيها، وبلغ أقصى الغايات في كل ما يريد من علم وتفوذ واستمتاع ، فكانت عاقبة هذا الشره غير المحدود، أن عاش ملول حياته بعماني أشد الآلام، ويقاسى أمر الأحران ، وفصته مشهورة معروفة وهي تبسط كل ما أجهلناه .

وقد توصل علماء النفس في هذا العصر - بعد البحث والتنقيب والتجريب - إلى معالجة هذه الخصلة في الأطفال ، وفرروا أن الطفل في سنه الأولى يكون في حال عقلية شبيهة بعقلية النائم بطريق الاغواء أو الايهام المنطابيسى .

التدريب المنطابيسى

كننا يعرف أنه يشترط لنجاح التنويم المنطابيسى شرطان أساسيان :
الاول: أن النائم يكون في حالة تبعية تامة للنوم، فتراد كأن إرادته قد سلبت، وكأن عقله قد ألقى ، وخلا من كل فكرة ، وكأنه قد أصبح في عزلة تامة عن الوسط المحيط به ، فلا يرى إلا شخص النوم، ولا يسمع إلا كلامه ، وعلى ذلك فكل فكرة يوحى بها إليه ، تدخل ذهنه فلا تجد فيه فكرة أخرى تنازعها وتعارضها ، فيطيعها وينفذها بالفعل .

الشرط الثاني : يجب على النوم أن يوحى إلى النائم الأفكار بصيغة الأمر « إني أريد » وأن يشعره بأن أمره نافذ لا محالة ، وأن واجبه أن يطيع ويمتثل لهذا الأمر ، أما إذا خاطبه بنبر صيغة الأمر الحاسمة ، بأن شرع يناقشه في الفكرة للموحى بها ، فقد زالت كل سلطة له عليه .
وهذان الشرطان متوفران في الطفل في علاقته مع المرني والوالدين .
أولاً لأنه في هذه السن الصغيرة ، في حالة تبعية لربيته ولوالديه، شبيهة بتبعية النائم للنوم

السابقة الذكر : فان ذهن الطفل ، وإن لم يكن خالياً من كل نقش (Tableau Rase) ، إلا أن ما فيه من ميول وغرائز وتصورات شتى ، يميز لا يستفيع أزياف حائلا دون دخول الأكار الجديدة فيه ، ولذلك كان الطفل سريع التأثر بالقدوة والمثل ، سهل الانقياد ، شديد الميل إلى التقليد والمحاكاة .
الثاني : لأنه إذا خاطبه المرئي بصيغة الأمر ، فإنه يمثل أوامرهِ ويُطيع نواصحه بلا تردد ولا توان . والتجارب البسيطة الآتية تؤيد ذلك كل التأييد :

إذا وقت أمام طفل عمره سنتان ونصف سنة ، وقد شرع في أكل قطعة من الخبز ، وقلت له بصوت عال وبدون إبداء أى سبب : « الآن قد شبع الطفل » ، والحال أنه لم يتناول إلا اللقمة الأولى فإنه يلتفت بقطعة الخبز الباقية على المائدة وينفض يده منها ، ويظهر أنه قد شبع تماماً .
وقد أمكن بالطريقة عينها إقناع أطفال في سن الرابعة بأن الألم الذى يشكون منه عقب وقوعهم على الأرض - مثلاً - قد زال تماماً ، وأن ما به من عطش زائد قد أطفئ . وزال كذلك ؛ كل ذلك بشرط أن يكون الكلام الموجه إليهم فى هذا الصدد بصيغة الأمر القاطعة ، من غير إزعاج الطفل لايقاع الرعب فى نفسه .

بهذه الطرق الحكيمية ، والأساليب العامية الصحيحة ، يجب أن نأخذ النشء من بدء حياتهم حتى يشبوا على ضبط أنفسهم بأنفسهم ، ويتعودوا إيقاف كل رغبة من رغباتها عند حد معين ، فلا يطلقون العنان لواحدة منها ، حتى تتعدى نورها وتجاوز حدها ، فتضر بالجموع ضرراً قد يورده موارد الخسران والهلاك ؛ شياً الفرد كحياة الأمة ، توازن قوى يحتوى بعضها بعضاً ، ويدفع بعضها بعضاً ، فإذا اختل هذا التوازن أعقبه الهلاك والفناء .

يقول مسيو أميل دوركين فى كتابه « التربية الخلقية » : إن أمة لا تترحم بالئن ، ولا تنذوق جماله ، أمة متوحشة ، ولكنها من جهة أخرى ، إذا لم تشغل إلا بالئن خاصة ، مهمة بذلك شئونها الحيوية الجديدة الأخرى ، بشرها بأن صمرها قصير وأيامها محدودة .

وقصارى القول أن النشاط الإنسانى يجب أن يخضع فى جميع نواحيه لنظام خاص ، وأن تقف كل ناحية منه عند حد معين ؛ وغاية محدودة ؛ فكما أن الإنسان إذا أراد أن يضئء ألم الجوع مثلاً ، أخذ مقتداراً معيناً من الغذاء ، كذلك الحال فى المعتقدات ، فان الاجتهاد فى تحصيل العلم إلى أقصى مدى ، يضر أولاً بالجموع العصبى ذاته ، كما يضر بقوة الإرادة التى تأخذ طبعاً فى الضمور والاضمحلال ، كلما غلا العقل وتوغل فى كسب العلم .

إن جهود الفرد محدودة ، كما أن جهود الأمة محدودة ؛ فيجب إذا أراد كلاهما أن يعيش عيشة منقاه ، أن توزع تلك الجهود على ضرورات الحياة المختلفة ، كل بنسبة أهميتها .

أحمد فهمى العروسى